

واقع قوي الإحياء الحضاري في دول إفريقيا جنوب الصحراء

مشروع الاستئناف الحضاري في مجال جنوب الصحراء: المرتكزات، الواقع والآفاق!

توطئة عن الفضاءين:

إذا نظرنا في هذه المساحة الشاسعة، نجد أن حدود المنطقة تنطلق شمالا من تخوم الصحراء التي تفصلها عن شمال أفريقيا ثم تمتد بمحاذاة الساحل الأطلسي في الغرب والجنوب لتصل إلى خليج غينيا فبحيرة تشاد في الشرق، وضمن هذه المنطقة المترامية التي تقدر مساحتها الإجمالية بحوالي: (6076890) نجد التنوع الشديد في الطبيعة والتباين الكبير في الأعراق واللغات والعادات والتقاليد، لكن العنصر الغالب يظل متمثلا في الوجود الإسلامي القوي تاريخيا والكثيف ديمغرافيا حيث يمثل المسلمون فيها حوالي 17% من المسلمين في العالم.

لاتساع الفضاء الذي نشأت وتحركت فيه قوى الإحياء، سنكتفي بعرض مقتضب عن الجزء الغربي باعتباره لوحة مجسدة لحالة الإحياء الإفريقية وذلك لكثافة الوجود الإسلامي في المنطقة (75%) مع نضج التجربة الحضارية.¹

التيارات المتعامدة:

إفريقيا قارة تجتاحها موجة عاتية من التيارات الفكرية لكن التيار التغريبي بتفرعاته يبقى أشرسها على الإطلاق، وهو العامل الذي وضعت قوى الإحياء في المقدمة باعتبار وزنه وعمق تأثيره ثم سعوا إلى إعادة تشكيل الخارطة القيادية وتمكين القيادة الإسلامية من استعادة دورها في حركة المجتمع وهو ما وضعه كل من عثمان كوبو ووارى إيران تحت عنوان: "موقع رجال الدين في المجتمع".

التحولات العاصفة وحالة الشهود:

يجمع الدارسون الذين يستشرفون المستقبل بحثا عن نقاط الاتفاق والاختلاف بين الأمم في خريطة الحضارة المقبلة، ونحن على مشارف أفول تلك التي سادت الأرض زهاء (6) قرون، على أن إفريقيا ستكون شاهدة وستنتقل من خانة المزراع المستباحة إلى دائرة الفعل والشخص.

بصمة غرب إفريقيا في المعترك الحضاري:

نظرا للكثافة الإسلامية العالية التي تتمتع بها منطقة غرب إفريقيا، حيث تتراوح نسبة المسلمين فيها ما بين 70-95%، بحسب الدول، يمكن اعتبار المنطقة الجزء الأهم² من الحزام الإسلامي الذي يمتد من مثلث البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي في شمال إفريقيا ليصعد عبر السهل وجزء من الغابات ليصل إلى شواطئ البحر الأحمر عبر كل من تشاد والسودان.³

أما الوجود الحضاري الإسلامي في غرب إفريقيا فقد تميز بعاملين جوهريين، أولهما كونه ذا وجه معرفي⁴ وثانيهما تتابع بروز قيادات إصلاحية قوية استطاعت المحافظة على قدر غير قليل من الزخم مكن المسلمين من الصمود أمام مختلف الهجمات التي تعرضوا لها.

1 - يضم غرب إفريقيا اليوم حوالي (220) مليون نسمة موزعين في (15) دولة هي جمهوريات: مالي، غامبيا، غينيا بيساو، غينيا كونا كرى، السنغال، سيراليون، ليبيريا، ساحل العاج، بركناسو، توغو، غانا، بنين، النيجر، نيجيريا وجزر رأس الأخضر الواقعة في المحيط الأطلسي قبالة السنغال.

2 - يتقارب في هذا مع شرق إفريقيا.

3 - عثمان برايمباري، جذور الحضارة الإسلامية في غرب إفريقيا، مصر، دار الإيمان، 2000م.

4 - محمد جكايتي، الفلان ودورهم في نشر المعرفة في غرب إفريقيا.

وهنا نرى أنه من حسن حظ قوى الإحياء الإسلامية بالمنطقة أنها لا تنطلق من فراغ بل فهي تتكى على إرث ضخم من الشهود الحضاري المتمثل في:
أ/ وجود مجتمعي متماسك يجسد قيم الإسلام بأرقى تشكيلاتها؛
ب/ رقي وعطاء حضاري تشكل في مجتمع قوي التمسك بهويته الدينية بين القسامات؛
ج/ تجارب سياسية ناضجة أنتجت قدرا كبيرا من التمكين؛
د/ إرث معرفي يشكل اليوم رصيذا فكريا يتغذى منه الإصلاحيون.

جذور الفكر الإحيائي:

من السمات المميزة للوجود الحضاري في غرب إفريقيا ارتباطه بالدولة منذ الوهلة الأولى لانطلاقة مشروع محاولات إحياء الدولة الإسلامية كما يتمثل في منعطف إسلام الملك رابيس انجاي ثم لحق به ابنه الملك وار جابي (ت: 1041م)، من هذا الإرث ظلت حركات الإصلاح تتغذى حتى نهاية القرن 19 الميلادي عندما سقطت دولة صكتو الإسلامية بعد قرن من الإصلاح والبناء⁵ وفي هذا الحيز الزمني شهدت المنطقة ميلاد أربع حركات إصلاحية كبرى، متعاقبة أو متزامنة وسعت إلى إحياء الدولة الإسلامية في كل من: بُنْدُ (BOUNNDU) وفوت تور (FOUTA TORO) وفوت جالون (FOUTA DIALONG) وفوت ماسين (FOUTA MASSINS) ووصلت إلى إقامة أنظمة سياسية ممكنة عمرت لأكثر من قرن ونصف.

مصادر التيار الإحيائي الحديث:

حين ندرس ظروف انبعاث قوى الإحياء في إفريقيا عموما، وفي الحيز الغربي منها على وجه الخصوص، من حيث الجذور والمصادر الموحية لها، نلاحظ تأثر الجيل المؤسس بالمدرستين السلفية في الحجاز كما هو الحال مع حركة الفلاح التي قادها المصلح الحاج محمود باه والإخوان المسلمون في مصر ثم الجزائر الذي يمثله الاتحاد الثقافي الإسلامي لكن فنسا مونتاي يري بأن الإصلاحيين في إفريقيا السوداء ينتمون إلى فكر ابن باديس أكثر من انتسابهم إلى الأفغاني وتلميذه محمد عبد.⁶

أصداء العالم الإسلامي في المنطقة:

ننبه هنا بأن ما يemor به العالم الإسلامي من أحداث ضخام يجد صداه في أوساط القوى الإسلامية الحاملة للواء الإصلاح في القطاع الجنوبي من الصحراء الإفريقية كما تجسد ذلك تفاعلات الربيع العربي الذي وصلت تداعياته إلى بعض البلدان في غرب إفريقيا. وقبل ذلك دفع الزخم الذي اجتاح العالم الإسلامي، إبان انطلاقة الصحوة الإسلامية، الأمور في غرب إفريقيا إلى مستوى من التفاعل والتعبئة جعل العديد من المتابعين يتوقعون حدوث انقلاب وشيك بالمنطقة لصالح المشروع الإسلامي الإصلاحى وخاصة الأحداث العاصفة التي عاشتها الجزائر في التسعينيات من القرن الميلادي المنصرم:

"كما هو الحال في البلدان الإسلامية الأخرى، ترافق اندفاع الإسلاميين في السنغال مع التشكيك في الثقافة والنماذج الغربية. إن مفهوم العلمانية هو الموضوع الأكثر تعرضا للهجمات (مصحوبا بإدانة شديدة للماسونية)، أكثر من المسيحية الأقلية التي كثيرا ما يتم التسامح معها على نطاق واسع. إنها العلمانية، التي تعتبر المحرك الرئيسي للتغريب الفاسد، والتي أصبحت بالتالي إحدى القضايا الرئيسية في النقاش الحالي. إن الأصولية الإسلامية لا يبدو أنها تشكل، على المدى الطويل، تهديدا للمؤسسات السنغالية، على الرغم من بعض نوبات الحمى".

المشروع التجديدي مسارات ومنحنيات:

"وكانت الحركة الإسلامية على وشك أن إنجاز مشروعها الإصلاحى العام ونشر الإسلام في كل مناطق غرب أفريقيا...، لولا أن عاجلها الاستعمار الصليبي الغربي، وفوت على الإسلام فرصة ذهبية للانتشار الكلي في

5 - أحمد محمد كاني، الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1987، 113.

6 - فنسا مونتاي، الإسلام في إفريقيا السوداء، ترجمة إلياس حنا إلياس، بيروت، دار أبعاد للطباعة والنشر والتوزيع، 1983م، 272.

غربي إفريقيا. ولو انتشر الإسلام على يد سلطة زمنية تسهر عليه وترعاه لما عرف ما يعرفه اليوم من تحريف وتشويه".⁷

من العلامات المضيئة في هذه المحاولات المبكرة النجاح في اختراق قلعة العلمانية في المؤسسات الأكاديمية في عدد من الدول، من أبرز هذه النجاحات إنشاء "الجمعية الإسلامية للطلبة في إفريقيا السوداء" (AMEAN) التي كان السيد/ عبد جوف، رئيس السنغال الأسبق، من أعضائها المؤسسين وذلك قبل الاستقلال.

ظاهرة التحولات الكبرى:

تتجلى هذه التحولات في الوعي الحاد بالهوية والذي أخذ يسرى في صفوف الأجيال الشابة، من شرق القارة إلى غربها، ويتمظهر اليوم في استهداف المصالح الغربية عموما والفرنسية خصوصا كما يتمثل ذلك في زحف اللغة الإنجليزية على المواقع التي كانت اللغة والثقافة الفرنسية تحتلها كما نجد ذلك في عدد من الدول كانت داخل المربع الفرنسي مثل رواندا والغابون والجزائر والحبل على الجرار.

وهذا الحيز الزمني المتسم بالحدة هو الذي نعته المفكر المسلم مالك بن نبي بفترة "التحولات العميقة".

المطالب المحورية الأربعة:

- 1) إعادة بناء المجتمع المسلم الذي يعاني من قدر كبير من التهلل المتقدم، على قواعد إيمانية أصلب بناء على قراءة متجددة في ضوء الواقع الإفريقي كما نادي بذلك الرئيس/ محمد جاه في أعماله الفكرية؛
- 2) إحداث حالة تبدل جذري على المستوى الاقتصادي بمعنى التخلص نهائيا من النير الأجنبي؛
- 3) الاستئناف التاريخي بمعنى استلهام التجربة التاريخية الإسلامية واستحضارها مع الاستمرار في جلب الآخرين إلى الإسلام أي الجمع بين الوظيفتين الدعوية والإصلاحية؛
- 4) الوصول إلى السلطة السياسية عبر صناديق الاقتراع، لكن الإشكال يتمثل في عدم وجود قناعة حاشدة فيما يتعلق بتوظيف الآليات الديمقراطية ما يجعل الرؤية ضبابية لدى كثير من القيادات الإصلاحية.

واقع قوي الإحياء: مشاريع وآفاق.

لفتت الرؤية التي طرحها الإسلاميون عددا من الباحثين الذين درسوا واقع المجتمعات الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء الذين لاحظوا:
"إذا كان الإسلام التقليدي في إفريقيا السوداء يعاني من الجمود والتقليد، فإنه يشهد وجود تيارات حديثة وعلى رأسها الإصلاحيون المسلمون".⁸

وعي رواد قوى الإحياء حقيقة أن العقبة الكداء أمام نجاح مشاريعهم تتمثل أساسا في التيار التغريبي المدجن ما جعلهم يخصصون جزء من جهودهم لكسر دائرة الفكر والثقافة التغريبية ووقفوا في ذلك وشهدت الجامعات والمعاهد والثانويات تحولا جذريا نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، لدينا اليوم في كل دول غرب إفريقيا مؤسسات إصلاحية تعمل في أوساط حملة الثقافة الغربية من أهمها "ودادية الكوادر المسلمين في السنغال" التي تعتبر من أكبر القوى الفكرية في الساحة.⁹

مربع التأثير:

استطاع جزء من التيار الإصلاحي حلحلة الوضع كما يظهر ذلك في محورين رئيسيين:

في ميدان التربية:

⁷ - Moriba Magassouba, L'islam au Sénégal: Demain les Mollahs -

⁸ - فنسا مونتاي، المسلمون في إفريقيا السوداء، 212

⁹ - محمد سعيد باه، العمل الإسلامي في السنغال (1370 - 1420 هـ / 1950 - 2000م)، ظروف النشأة وآليات التطور، جامعة الأزاعي، بيروت.

يوصل الإصلاحيون تكديس المنجزات في هذا النطاق من خلال طرح بدائل جذابة مكنتهم من كسر دائرة الاحتكار في مجال التربية والتعليم كانت الكنيسة قد أنشأتها منذ بداية الاحتلال الغربي للمنطقة، ويبلغ عدد المدارس الإسلامية اليوم في السنغال، وهي قلعة العلمانية بالمنطقة، (23681) ويدرس فيها أكثر من (03) مليون تلميذ، وهو ما سيحدث تحولا عميقا على المدى القريب، يمكن أن نشبهه بالدور الذي تنهض به مدارس الأئمة في تركيا.

في المعتكرك السياسي:

ثمة تفاوت كبير بين مختلف التجارب التي تخوضها قوى الإحياء في المنطقة على هذا المستوى، في حين استطاع الإصلاحيون في السنغال تغيير المعادلات بإنشاء (5) أحزاب سياسية ذات مرجعية إسلامية واضحة من الناحية الفكرية والوصول إلى البرلمان، نجد أن غيرها لا تزال تقدم رجلا وتؤخر أخرى.

لدينا تجربة أخرى مثيرة تجري في جمهورية مالي، التي تعتبر دولة في حالة الغيبة الكبرى (انهيار الدولة)، حيث نجد أن التيار الإصلاحي، الأقدر من غيرها على الحشد الجماهيري وخلق توازنات سياسية واجتماعية مع القوى العلمانية المتمكنة من مفاصل الدولة، قد أفرز رجالا يملكون قدرا عاليا من الكاريزما مكنهم من خلق حالة توازن القوى مع التيار العلماني المحنك للحياة السياسية منذ أكثر من ستين عاما إلى جانب نجاحهم في تعبئة الشارع ضد الهيمنة الفرنسية التي أخذت تتضعع.

الحصاد الأولي:

رغم حالة الانتكاسة، في مجال الطموحات والغايات المرصودة، فقد نجحت القوى الإحيائية في ثلاثة مجالات محورية:

1) التربية والتعليم حيث وصل رواد التيار الإصلاحي اليوم إلى ما يمكن أن نسميه بالنظام الموازي في مجال التربية والتعليم ونتج عن ذلك تكوين جيل مستنير من القياديين يرشحون للنهوض بدور محوري في الحياة العامة خلال الفترة القادمة؛

2) إعادة الإسلام إلى وسط الدائرة بعد فترة من التهميش وتضييق الهامش الذي كان لديهم؛

3) اختراق قلعة العلمانية المحصنة ما أوجد اليوم حالة نستطيع وصفها بمرحلة إعادة ترتيب الأوراق؛

فرص وتحديات معرقله:

حين نتأمل في طرائق وآليات تعاطي قوى الإحياء بالمنطقة مع الواقع، نلاحظ وجود جملة من العوامل تبرز قدر التقصير الذي تعاني منه وعليه واجب العمل على تداركها قبل تبدل الأحوال الذي يعتبر أمرا واردا بناء على استقرار الواقع واستشراف المستقبل.

عدم القدرة على استثمار الهامش الضخم الذي تملكه في عدد كبير من الدول الإفريقية إلى جانب ميزة كبيرة تتمثل في وجود جو إعلامي موات مع سقف عال من حرية التعبير ما يوفر مساحة مهمة للوصول إلى الجمهور بخلاف ما عليه الوضع في معظم أرجاء العالم الإسلامي.

أثرت ظاهرة الإرهاب التي عرفتها منطقة غرب إفريقيا، من نيجريا إلى دول السهل، في بعض مشاريع التيار الإصلاحي حيث استغل خصومهم جو الرعب للتشويش على حملة المشروع الإصلاحي وقد دخل بعضهم السجون كما انطلت الدعاية السيئة على الرأي العام.

إلى جانب الفرص الثمينة التي تملكها قوى الإحياء في إفريقيا جنوبي الصحراء ثمة جملة من العقبات على قيادتها وضع خطط مناسبة لمواجهةها على غرار ما فعله سلفها؛ من أبرز تلك التحديات:

أ/ عدم الاستقرار الذي ساهم في إجهاد حملة الفكر الإصلاحي خلال العقدين المنصرمين في عدد من الدول، ثم تفاقم الوضع ببيروز ظاهرة الإرهاب التي أربك الوضع في الدول ذات الثقل الإسلامي؛

ب/ الامتحان الصعب الذي شكله عدد من التيارات الفكرية الداخلية التي أربكت قيادات التيار الإحيائي بما في ذلك الموجة الشعبية وبدرجة أقل السلفية المتحورة التي اجتذبت قيادة قوى الإحياء إلى المعتكرك الجانبي والخاسر.

ج/ ضعف مستوى التكامل بين القوى الفاعلة في معظم أرجاء المنطقة حيث فشلت كل محاولات التشبيك التي جرت بين مكونات التيار الإسلامي الإصلاحي على مستوى غرب إفريقيا وآخر هذه المحاولات وأكثرها جدية تلك التي جرت منذ حوالي عقد من الزمن بإنشاء رابطة ينضوي تحتها جميع مؤسسات الكوادر المسلمين في غرب إفريقيا (CIMEF) التي ضمت (6) دول مهمة لكن التجربة التي كانت واعدة لم تعمر طويلا.

د/ غياب أو فشل جهود التقارب بين الأطر والهياكل والمؤسسات الإسلامية التي تلقتي كلها على مطلب الإحياء، وهذه الظاهرة السلبية المعرقة للجهود البناءة التي تبذل في كل أرجاء القارة التي تقطنها غالبية مسلمة، نجدها كذلك شاخصة داخل القطر الواحد حيث يستحيل جمع حملة المشروع الإصلاحي للالتقاء على الحد الأدنى من التآزر، وهو ما يضعف حظوظهم في المجال السياسي خاصة، ويطمع فيهم خصومهم.

آفاق المستقبل:

لدينا جملة من المؤشرات يمكننا أن نبني عليها رؤيتنا لما يمكن أن توول إليه محاولات الإحياء في إفريقيا عموما وفي القطاع الغربي منها على وجه الخصوص وذلك من خلال:

أولاً، وجود انبعاث داخل الأطر الدينية ذات المرجعية الصوفية، بعد فترة من الركود، والتوجه نحو الفكر الإصلاحي كما نجد تبلور هذه الظاهرة في كل من السنغال ومالي وغينيا؛

ثانياً، ميلاد جيل جديد من الشباب مرشحين للوصول إلى القيادة، يحملون هم الإصلاح، ويعتبر هؤلاء أقدر على التعامل مع متطلبات الواقع الجديد الذي يتسم بقدر كبير من سرعة التبدل مع عوامل تأثير خارجية غير معتادة.

ثالثاً، تضائل تأثير التيار الديني المنغلق الذي كان ينادي بالابتعاد عن الساحة السياسية بإيحاء من التيارات التي تخاصم التيار الإسلامي الإصلاحي.

رابعاً، اتساع الفضاء الذي يملكه التيار الإصلاحي للتحرك وخاصة بالنسبة لمنطقة غرب إفريقيا ويشمل الدول الواقعة بين الصحراء (السنغال) وبين حوض تشاد (نيجريا)، تنضوي هذه الدول تحت لواء منظمة المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (CEDEAO).

توصية:

اختتاماً لهذا العرض السريع لواقع قوى الإحياء في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء نسوق هذه الباقية من التوصيات:

أولاً، انطلاقاً من كون هذه المنطقة تمثل ثقلاً إسلامياً وإرثاً حضارياً ثميناً، ما يجعلها عمقا مهما في إطار مشروع الاستئناف الحضاري، على "منتدى كولامبور للفكر والحضارة" إيلاء العناية لهذا الجزء المهم من العالم الإسلامي وذلك بالتعرف عليها عن كثب ثم ضرب سهم في التعريف بها مع إسناد القوى الإسلامية التي تحمل هم الاستئناف الحضاري فيها.

ثانياً، العمل على توسيع دائرة الاهتمام بالجزء الجنوبي من القارة مع تركيز العناية في القطاع الغربي منه وذلك باعتبار القارة مرشحة للنهوض بدور مؤثر في الدورة الحضارية المقبلة كما تؤكد ذلك عدة مؤشرات من أهمها تنامي اهتمام الدول ذات الوزن العالمي بالقارة.

ثالثاً، توجد قوة إسلامية هائلة في المنطقة لكنها تبقى شبه معطلة من حيث التأثير في القرار السياسي بما يساوي حجمها ووزنها، وهو ما يحتم صياغة رؤى جديدة لتعبئة هذه القوة وتأطيرها بحيث تصبح فاعلة بما يستجيب لوزنها الحقيقي في الساحة الإفريقية وبذلك نجنب المسلمين البقاء على الهامش في المرحلة المقبلة.

والله ولي التوفيق!

د.محمد سعيد باه